مراجعة الماضي الفردي أو طفولة في ظلّ الوالد

قراءة في كتاب "والد وما ولد"[1] لـ أحمد التوفيق

إدريس الخضراوي

١- توطئة

تشكل قراءة نصوص أحمد التوفيق متعة خاصة، وفرحا كبيرا بما يتحقق فيها من حكايات وسرود ذات مضمون عميق، وتكثيف لدلالات وأبعاد شديدة الصلة بالكون والوجود والإنسان. فمنجزه الإبداعي، من حيث كمه ونوعه، يختزن من الرؤيات والتصورات حول التجربة الإنسانية في رحلتها الممتدة طويلا في الزمان، ما يؤكد الخيال إمكانا لاستكشاف مجهولات النفس والجمع بين عناصرها ونواياها المتباعدة بما يخلق علاقات جديدة واقترابا مغايرا من الواقع. وهذا ما يبيح لنا القول بأن الرواية عند أحمد التوفيق، بخلاف حساسية كتابية كان سؤال السرد فيها مسنودا بخلفية نظرية عن الكتابة ومفهومها وأشكال تحققها، تبدو مرتبطة بالأفق الإبداعي العربي الباحث عن مرجعية مغايرة ومختلفة للكتابة السردية تجعل منها مجالا للبحث عن معاني الوجود الأكثر خفاء وعمقا. لذلك فهي معنية بارتياد أفق آخر، تبحث فيه عن إمكان إبداع تلك الصورة القمينة بلفت اهتمام القارئ إلى عوالم ممكنة موصولة بأسئلة راهنة وبهاجس الذات الكاتبة نحو التميز والاختلاف شأن كل تجربة إبداعية عميقة. لذلك أعتبر أن السعي لتلمس الإضافة العميقة لتجربته الإبداعية والتقصي في العوالم التي تبنيها من خلال اللغة، وما تحفل به من تصور خاص عن الإنسان، لا يمكن أن يتجاهل خصوصيتها في تنوع صيغ السرد وفي خلفياته الثقافية والفكرية ودقة الأسلوب وبلاغة التمثيل. ومعروف أن هذا كله جعل أعماله موضوعا لقراءات ومقاربات متوسّلة بمناهج مختلفة في مرجعياتها ومنطلقاتها وفرضياتها الموجهة.

لقد تمكن أحمد التوفيق منذ أن أصدر روايته الأولى: "**جارات أبي موسى**" (١٩٩٧) من أن يلفت أنظار قراء الرواية المغربية، فوضعوه في مقدمة كتابها. وعندما أصدر نصوصه التالية: "**شجيرة حناء وقمر**"(١٩٩٨)، **السيل** (١٩٩٩) و"**غربية الحسين**"(٢٠٠٠)، ثم سيرته الذاتية: "**والد وما ولد**" طفولة في سفح الظل ٢٠٠٩، بدت تجربته السردية وهي تصدر عن قدرة على ولوج فضاءات التركيب السردي، وعن ابتكار في جمالياته وبنياته، وعمق في مصادراته الفكرية والموقفية، وغنى في نزوعاته الفلسفية والروحية، لكأن الرواية في تطلعها إلى المتعة والمعرفة معنية بتحريك سواكن السائد وإخصاب التفكير في معنى الحضور فيه، وخلقه بكشف ما كان مجهولا فيه. لذلك، فالاقتراب من أعماله السردية من خلال القراءات المتعددة التي اشتغلت عليها، وضبط مسارات متخيلها، وما يتحقق فيها من اقتراحات جمالية، يبرز الخلفية التاريخية والثقافية التي يغترف السرد من معينها، بشكل يجذره في التراث المغربي على

وجه التحديد، خاصة وأن الكاتب يستثمره لتحقيق نوع من التحبيك السردي للهوية المغربية بما يجلي الكثير من ملامحها وخصوصياتها الروحية والأنثربولوجية.

على هذا الأساس، فإذا جاز لهذه القراءة أن تموضع منجز الكاتب ضمن ما يتحقق في الرواية المغربية المعاصرة من تنوع في أسئلة الكتابة والتخييل، وتعدد في الشكل الروائي بما يوازي صيرورة وتحولات المجتمع المغربي، فلا مناص لها من التشديد على مركزية الحكاية، ومنحها موقع الصدارة في كل ما يتحقق في النصوص من ضروب الجماليات والإبداع. وبهذا المعنى يجترح التوفيق، وهو القادم للرواية من حقل التاريخ، مفهومه للتجديد والإبداع في الكتابة، وينثر عناصره في مكوناتها اللغوية والتخييلية والسردية والزمنية والمكانية حاضا المتلقي على إعادة بنائها وإعطائها الموقع اللائق بها، قصد فهم أنساقها الجمالية والتجريبية وما تستضمره من رسائل فنية وأكسيولوجية.

ولفهم التجربة الكتابية التي يقدمها التوفيق في نصه "**والد وما ولد**" **طفولة في سفح الظل**، فإننا سنقترح الاقتراب، في البداية من مسألة تجنيسه، ومحاورة شكل التعاقد المعتمد فيه مستندين في ذلك إلى فرضيات أولية تعتبره سيرة ذاتية. وبعد ذلك سنتناول أصالة الحياة المستعادة باعتبارها أحد ركائز الكتابة عن الذات بالمعنى الواسع، وما يندرج في ذلك من مسارات تخص العائلة والانتساب الروحي والتعلم. وسنختم هذه المصاحبة بالتوقف عند المحكي الذاتي ومقومات الكتابة الاستعادية، خاصة ما يتعلق بعملية استرجاع الوقائع عبر الذاكرة ونقلها عبر الكتابة.

٢- تجنيس النص

من اللافت أن هذا النص يطرح أسئلة متعددة بخصوص هويته الأجناسية. وما كان له أن يضع القارئ وجها لوجه أمام هذه الوضعية الخاصة، وما تولده من التباس ودعوة لبذل مجهود تأويلي أكبر في التقريب بين النص ونوايا المؤلف المتعلقة به سواء تلك المعبّر عنها في هذا النص أو تلك التي نصادفها بصورة عرضية في نصوصه السابقة، لو أن الكاتب انتهج منهجا تعاقديا مباشرا من شأنه أن يلفت نظر القارئ الناقد إلى أن هذا العمل يندرج في إطار السيرة الذاتية، خاصّة أن نماذج كثيرة مما كتب في إطار هذا الجنس الأدبي قد سلك فيها أصحابها مسلك التعاقد المباشر مما يبدّد كل أشكال اللبس، ويوجه القارئ صوب الفرضيات القمينة بتلمس دلالات النص وأبعاده وعلائقه بشخصية المؤلف وبالبيئة التي عاش فيها. وإذا كان نص "والد وما ولد" يخضع لتعاقد خاص، فلأن ذلك يرتبط بخلفيات جمالية وفنية شديدة الصلة بالظروف التي كتب فيها، وبما تعرفه الكتابة عن الذات من تجدد في الأشكال والصيغ وأساليب التمثيل، بما يجعل إضاءة شخصية المؤلف عملا مرتهنا لكفاءة القارئ المعرفية، ولقدرته على تلمس ما في نصه من سنن أدبية وقيم ثقافية واجتماعية.

ومن مظاهر التعاقد غير المباشر في هذا الكتاب أن المؤلف لم يشر في صفحة الغلاف إلى طبيعته الأجناسية، كأن الكتابة غير معنية بموضعة منجزها وتحديد هويته، وإنما ترك الأمر مفتوحا على فاعلية

القراءة في مواجهة هذا التشكيل الرافض للتموضع والتجنيس باعتباره قيمة جمالية، كما أنه لم ينهج فيه منهج السرد بضمير المتكلم مما يقوي الاعتقاد بالتطابق بين الراوي والكاتب الواقعي كما أشار إلى ذلك فيليب لوجون في تعريفه للسيرة الذاتية حيث اعتبرها "محكيا نثريا استرجاعيا تقوم به شخصية واقعية لحسابها عندما تستعيد مرحلة من حياتها"[٢]. ومعلوم أن هذا التعريف يبرز عناصر أساسية تخص السيرة الذاتية منها: أ- شكل اللغة(محكي نثري) ب- الموضوع(الحياة الفردية الخاصة) ج- وضعية الكاتب (التطابق بين السارد والشخصية الواقعية للمؤلف) د- المنظور الاسترجاعي للسرد. ومع ذلك فالاستراتيجية التي سلكها التوفيق في إخراج هذا النص إلى حيز التداول وفق هذه الوضعية التعاقدية الحاجبة لأسرار السيرة والكاشفة لها في آن، تُنزّلُ عمله هذا بخصوصيته الأسلوبية والبنائية في هامش من الحرّية ليس بالهين، وهو ما يعني على مستوى التلقي، توافر إمكانيات أكبر لقراءات منفتحة ومتعددة تتدبر النص وتهيئه للظهور في صيغ شتى.

لكن غياب الميثاق المباشر لا يعني انعدامه تماما، بل نجد المؤلف يقدم إشارة صريحة حول العنوان وحول تشريح النص تفيد بأن الأمر يتعلق بسيرة ذاتية. ونلمس هذا في الفاتحة النصية(L'incipit) باعتبارها موقعا حساسا للغاية يوجه القراءة ويحدد فرضياتها. فمن هذا الموقع تنهض وتتحقق فيه "مجموعة من التفاعلات النصية الحيوية، القادرة وحدها على الدفع به قدما إلى الأمام وإرشاد القارئ إلى كيفيات وضروب تصريف رموزه وإشاراته، نحو تصور استراتيجي يضمره ويخطط له فاعل حيوي حقيقي هو ذاك الذي شاع الاصطلاح عليه اليوم بالكاتب أو المؤلف المضمن".[٣] ففي هذا النص تضطلع الفاتحة بالتعريف به والإرهاص إلى طبيعته الأجناسية. فإذا كانت العلاقة بين الولد أحمد والأب في حميميتها وتواشجها وملازمة ظل الوالد للولد ملازمة النسغ للغصن الرطيب كما يقول المؤلف الضمني(L'auteur impliqué)، قد تدخلت بقوة في تعديل صيغة العنوان التي كان المترجم لذاته يحملها في ذهنه عدة أعوام، وهو ما يعني أن مشروع إنجاز هذه السيرة يتجاوز بكثير زمن إخراجها إلى مجال التداول، تفيدنا على مستوى التلقي بأهمية الانتباه للهوية السردية التي يشيدها الحاكي ودور الوالد فيها، فإن في الكلام الذي يجري على لسان المؤلف فيما يتعلق بالنص والموجهات الرئيسية لاشتغال الحكي فيه، ما يبدد كل أشكال الالتباس، بما يعني أننا أمام سيرة ذاتية. يقول الحاكي: "الكاتب شخص تجاوز، عند كتابة هذا النص، عامه الستين. يتذكر ما عاشه أو سمعه أو فهمه أو أحس به حين كان عمره بين السنة الخامسة والثانية عشرة. يتحدث بصيغة الغائب عن والده، ويسميه الوالد وعن نفسه، ويسميه الولد". (الكتاب، ص٧)

وبالانتقال من هذه الإشارات المتعلقة بطبيعة الميثاق المعتمد في هذا الكتاب، وما ضمنه الكاتب في الافتتاحية من إشارات تُنزّله في دائرة الكتابات المرجعية وتجذر السرد فيه في جدول التذكر الخاص

بالسيرة الذاتية بدلا من التصور الذي يحمل القارئ عادة نحو دائرة المتخيل الأدبي، إلى الحديث عن النص في بنيته الداخلية والاستراتيجية المعتمدة في تقديم طفولة الكاتب في مرحلة معينة من التاريخ تتعالق مع تاريخ المغرب الحديث وحياة أهل الأطلس فيه، لوجدنا أن المؤلف، وعبر وساطة الراوي، يميز بين الوقائع التي علقت في ذهن الراوي، وهي مما يتذكر أنه حكي له، ثم الذكريات بما تتضمنه من وقائع وحوادث، يجري تفسيرها من قبل الراوي وتعكس وجهة نظره حيالها. وفي ذلك الحوار بين ما هو مروي لشخصية الولد وما هو من صميم وعيه واحتكاكه بموضوعات وأشياء العالم الذي عاش فيه، تتجلى الكتابة الإبداعية بما هي جزء أساسي وحميمي من تجربة الحياة بأبعادها الفردية والاجتماعية والإنسانية.[٤] وهذا ما يعطي للسيرة الذاتية طابعها التعريفي، مستندة في ذلك كله إلى تقنيات الخطاب السردي لنحت صورة بمكنتها ترجمة العلامات المائزة لشخصية الطفل الذي كانه المترجم لذاته. وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار هذا الكتاب محكيا حول الطفولة، يختزلها ويكثفها بشكل باهر، كما يعطيها اهتماما أكبر، ويجرب صيغا كثيرة لاختبار شكل ومعنى تلك الطفولة وتجسيد لحظاتها خطابيا من موقع التآزر مع ما كانته الذات الكاتبة في الماضي.

ولا يكفي من خلال هذه الاستراتيجية السردية أن نتلمس مفهوما مغايرا للذات وعلى مسافة من وحدة متوهمة باعتبار أن الذات ها هنا خزان لقيم الجماعة وموروثاتها ومعتقداتها وطرق فهمها[٥] وحسب، بل إن التوفيق يحول شخصيتي الوالد والولد إلى مولّد دلالي وتركيبي يمكن من خلاله بناء عالم ممكن لما عاشه المغاربة، خاصة مغاربة الأطلس، من ضروب التماسك والانسجام والوحدة في إطار القبيلة رغم فساد ممثلي السلطة أحيانا في ظل الحماية التي كان المغرب يرزح تحت نيرها. لذلك فالدلالة الكامنة في هذا التمييز الذي يقيمه الراوي/ الكاتب فيما يتعلق بالمحتوى السردي تتجلى في التأكيد على وعيه بالأفق الرحب الذي تفتحه الكتابة عن الذات، والهامش الذي تتيحه في تركيب حوادث ووقائع من حياة باتت تنتسب إلى الماضي. وبما أن الماضي لم يعد موجودا الآن، فإن عملية استحضاره أو استعادته عبر التذكر، وهو فعل انتقائي، لا يمكن أن تتحقق بمنأى عن الخيال، ليس بالمعنى الذي يحيل على الصور والأوهام، وإنما بوصفه ممارسة مزدوجة: مؤسَّسَة داخل ثقافة بعينها ومؤسِّسة لهذه الثقافة. وبهذا المعنى فالخيال يضيف إلى السيرة الذاتية الكثير من عناصر التميز والفرادة. وهذه الممارسة بما تنطوي عليه من أشكال وخطابات وأساليب، هي اليوم محط اهتمام النقاد والباحثين داخل سياقات التداول المحلي

٣- أصالة الحياة المستعادة

من أهم مرتكزات السيرة الذاتية أنها ملفوظ استعادي واقعي يقف على مسافة من الملفوظات التخييلية لجهة التداخل والتماهي والتطابق فيه بين شخصية المترجم لذاته والراوي والكاتب الواقعي. وهذا التطابق بين هذه المحافل الثلاثة هو الذي يعمق التعاقد بين الكاتب وقرائه على أساس أن ما يقرؤونه هو

جزء لا يتجزأ من حياة عاشها المؤلف بوقائعها وأحداثها وذكرياتها المختلفة. وهذا التعلق بين شخصية المؤلف خارج النص والشخصية المتحدث عنها في السيرة الذاتية هو الذي لا نجد أصلا له في الملفوظ التخييلي "لأن الشخصية المتخيلة لا تتعلق بغير الملفوظ الذي تنتج فيه وليست موزعة بين سياقين أحدهما سردي لغوي وثانيهما حقيقي واقعي"[٧] وإن كان هذا لا يمنع من قراءة الملفوظات التخييلية فى علاقاتها المركبة والمتداخلة بالواقعي والإيديولوجي.

إن أصالة التلفظ المميزة للسيرة الذاتية هي التي تضفي الحقيقة على الحياة المستعادة وتؤسس على مستوى التأويل لصلات تطابق أو تشابه بين السرد والحياة. وهذا ما يتيح إمكانية اختيار الوقائع والأحداث المتصلة بشخصية المؤلف والمواقف المنبثقة حيالها، وإخضاعها لاختبارات تهدف إلى التحقق من صدق المحتويات التي يحملها السرد ومدى مطابقتها لما هو معلوم[٨]. وهذا ما يعني أن كاتب السيرة الذاتية ليس حرا كل الحرية في بناء سيرة حياته، لأنه ملزم ببنائها على أساس ما حدث بالفعل.

لقد درج الكثير من كتاب السير الذاتية على السرد بضمير المتكلم قصد تعزيز الميثاق السيرذاتي، لكن أحمد التوفيق في هذا الكتاب سلك مسلكا مغايرا معتمدا السرد بضمير الغائب، لكأنه يسعى من خلال هذه الاستراتيجية إلى التخفي قصد إخضاع ذاته المسترجعة للمسافة المطلوبة توخيا للحقيقة، ومن ثم إعطاء الذكريات المستعادة دلالة ومعنى يتعديان كونها متعلقة بشخصية إنسان بعينه. وإذا علمنا أن الحاكي/ الكاتب يستعيد أحداثا وذكريات مضى عليها أكثر من خمسة عقود، أمكننا أن نتصور ما يمكن أن يتهدد هذا الفعل من نسيان وثقوب. وإذا كان المؤلف قد آثر في الافتتاحية أن يتحدث بضمير المتكلم مؤسسا بذلك علاقة مباشرة بالقارئ، ملمحا إلى ما يمكن أن يشكل سندا في إنضاج القراءة وتعزيز قدرتها على التكلم عن النص ومحاورة دلالاته المتعددة، فإنه عندما يشرع في بناء الهوية الكلامية بضمير الغائب يسند ذلك الفعل إلى شخصية الحاكي، دون أن يحدث ذلك أي التباس في أن الراوي هو صوت المؤلف، رغم ما يحدثه الضمير الغائب من إحالات على خطاب التصور أكثر من خطاب الحقيقة. وإذا كان السرد يتخذ منحى تعاقبيا في تمثيل الوقائع والذكريات والمواقف المختلفة التي حدثت للولد عبر مساره الممتد من السنة الخامسة حتى سن الثانية عشرة، فإنه في بناء الهوية السردية يداخل بين الأزمنة ويغوص عميقا في الزمن التاريخي، مستوعبا شخصيات عديدة ومحكيات وقصص كثيرة تضيء ما يميز هذه السيرة من تشعب وديناميةٍ. لذلك فما يميز هذا النص من ناحية تقديم الذات يؤكد أن كاتب السيرة الذاتية لا يمكنه إلا أن يستثمر الطرائق السردية في إبداع الحياة، وإعادة تمثيل لحظاتها القوية بشكل مؤثر. وإذا كان هذا الاشتغال على الزمن التعاقبي في السيرة الذاتية لا يعدو أن يكون مفارقا للحقيقة[٩]، فإنه بالمقابل يكشف عن خصوصية الكتابة عن الذات وقدرتها على الانفتاح على طرائق ومقتضيات أسلوبية جديدة لتحقيق الإحالية المطلوبة.

وعلى هذا الأساس فالطفولة المستعادة في السيرة الذاتية لأحمد التوفيق تتشكل ملامحها العامة من وحدات مختلفة تتقاطع فيما بينها لإعطاء معنى لها كمرحلة عاشها الولد الذي كانه بقرية إمرغن الواقعة بالشمال الغربي من جبال الأطلس الكبير. وهذه الوحدات تنتظم كما يلي:

أ- المسار العائلي

ينتسب المترجم لذاته إلى أسرة أمازيغية عريقة بالأطلس الكبير هي أسرة آيت واحمان(أهل واحمان) وهي "أسرة شيوخ توارثوا الثروة بنسبة بارزة في بيئة تتميز بالقلة والشح في الموارد، كما توارثوا الشهرة والمشيخة في قرية إمرغن". (الكتاب، ص٩) وإذا كان هذا النسب يعكس الأجواء الأسرية والروحية التي تربّى في كنفها الولد المزداد ظهر يوم الخميس من عام ١٩٤٣، فإن القرية التي ينحدر منها تجسد عراقة الأسرة وتجذرها في التاريخ المغربي. فقرية إمرغن، وهي إحدى قرى جبال الأطلس الكبير، "توجد في منتصف الطريق التي كان يسلكها خلفاء الدولة الموحدية في القرن السادس الهجري، كلما توجهوا جنوبا من عاصمة المغرب الكبير والأندلس، مدينة مراكش، في ركب زيارتهم كل عام لمدينة تينمل، مهد دولتهم ومدفن إمامهم المؤسس، المهدي بن تومرت". (الكتاب، ص٩) وإذا كان هذا التأطير التعريفي الواقع في سياق يزاوج فيه الراوي بين السرد التاريخي والوصف الجغرافي، فإن نحت الأنموذج الذاتي اقتضى من الراوي استحضار أغلب الشخصيات التي عايشها الولد واحتك بها داخل الأسرة الكبيرة بأسمائها وموقعها في سلم التراتب الأسري، حتى أننا نجد الراوي يقوم بتفريد بعض هذه الشخصيات في لغاتها. لذلك، فانفتاح السيرة الذاتية على شخصيات عديدة يتعدى مجرد الدلالة على الحضور المشترك في ذات الفضاء الأسري والقبلي الذي عاشه فيه الولد، ليشمل معاني التكلم والبوح والإلماع والإحالة على شخصيته.

يفتتح الراوي السرد عن طفولة الولد منطلقا من زمن ولادة الوالد محمد في بداية العقد الثاني من القرن العشرين بعد ستة أشهر من وفاة والده(جد الولد) بورحيم، وينتهي عند ١٩٥٥ سنة عودة السلطان محمد الخامس من المنفى وإعلان استقلال المغرب. وإذا كان من دلالة يمكن أن نستخلصها من هذه الإحالة إلى أحداث ووقائع تاريخية تخص المجتمع المغربي وموقفه الرافض للاحتلال فهي إبراز أشكال من التمثل الجديد للوطن، كانت تتخلل مجتمع القبيلة، وتفتحه على سياقات ثقافية جديدة، كما أن الحضور المركزي للوالد في هذه السيرة الذاتية يؤكد دلالة الارتباط والتواشج العميق بين التنشئة الاجتماعية التي خُصّ بها الولد وشخصية الوالد. وهو أمر لا يمكن فهمه إلا إذا استحضرنا مع الراوي ما عُرِفَ عن الجد من عاطفة فياضة كان يغدقها على بنتيه طامو وخديج من زوجته المتوفاة، حتى أنه عندما تطلب منه الأمر أن يشارك في حرب من حروب تكتلات قواد القبائل في جنوبي المغرب في بداية القرن العشرين أبى إلا أن يأخذ معه كبرى ابنتيه طامو واصطحبها في تلك الرحلة دون بلوغ. (الكتاب، ص١٣) لكأن

الراوي يلفت انتباهنا إلى المقاومات الشديدة التي واجهها الوالد في تربية الولد سواء من المقربين من أفراد الأسرة أو من أفراد القبيلة أو من بعض الأعوان، والتي لا يمكن فهمها وتقدير حجمها وخطورتها بالنسبة للأب في هذا المجتمع الزراعي والقبلي المتماسك والصارم الذي لا مكان فيه للتدليل والامتياز عندما يتعلق الأمر بأشغال اليوم، حتى أن أشغال الفلاحة والرعي والقيام بالضيافات اليومية ومواجهة مطالب تناسب الحفاظ على المقام هي حرب من أجل البقاء (الكتاب، ص١١) ، فتلك المقاومة لا يمكن تقدير درجتها إلا باستحضار رمزية السي بورحيم، وامتداد شخصيته بطباعها المعروفة في شخصية الوالد محمد.

وموازاة لهذه الصورة التي ينسجها الراوي لشخصية الوالد في عطفه وحنوه على الولد، وإصراره على ملازمته واصطحابه معه، حيث نشأ يتيما بعيد رحيل الأب المتمني، فكفله الشيخ الحسين بن محمد شيخ القبيلة وهو من السي بورحيم واتخذه بمثابة ولده، بعد رحيل أمه خدوج، فجعله المشرف على أشغاله حتى أن الناس كانوا يسمونه بدوره السي محمد أبو رحيم، ينسج كذلك صورة لأم الولد أحمد (عبوش بنت السي حدوش) تليق بمكانتها ومركزيتها في هذه الأسرة الكبيرة. فقد تزوجها محمد سنة ١٩٣٩ وكان عمره ثلاثين سنة، وكانت بخلاف زيجات المرشحين للزواج خلال العام المذكور، من خارج القبيلة، ومن عائلة تدعى عائلة أيت عبد الله بقرية **أماس ن كيك** وكان والدها على درجة من حفظ القرآن ومن المعرفة الدينية. (الكتاب، ص٢٢) فقد تفهمت بعد وفاة الشيخ الحسين إقدام زوجها على الاقتران بابنة مكفوله فاظمة حفاظا على ثروة كان دوره وكدحه كبيرا في جمعها وتراكمها. وهذه الطباع جعلتها صبورة ومتحملة، وتضطلع بإنجاز كل الأشغال رغم الخادمات الكثيرات اللائي تتم الاستعانة بهن في هذه الأسرة.

وبقدر اهتمام الأم بالولد أحمد وخوفها الشديد عليه من عيون الحساد، بعدما لم تكتمل سعادتها بمولودها البكر عبد الهادي الذي توفي نتيجة ورم في الرأس، فإنها لم تكن تتأخر أو تتوانى في الاستجابة لكل مطالب هذه العائلة الكبيرة سواء ما تعلق بإعداد وجبات الفطور والغداء والعشاء لمن هم في الدار أو للطارئين على الأسرة من الضيوف أو المارين في الصباح إما للشكاوى أو لخدمات مطلوبة منهم، أو من أهل الخماسة أو المزارعة أو من البنائين أو قاطعي الأشجار أو صناع الفحم أو من الرقاصين الذي يأتون أو يذهبون بالأخبار أو من اليهود الذين يصنعون الحلي.(الكتاب، ص٨٥) لذلك وصفها الحاكي بأنها، أي عبوش، كانت آلة للطبخ لا تتوقف. وفي سياق هذه الصورة المنسوجة حول شخصية الأم نجد اهتماما كبيرا بالتفاصيل المتعلقة بأنواع الأغذية المفضلة عند أهل هذه القرية مما تقوم الأم بإعداده على وجه الاحتفاء والكرم للضيوف أو مما تعده في الأيام العادية استجابة لمطالب أفراد الأسرة الكبيرة، وكذلك بمجتمع النساء في هذه القرية الكبيرة، سواء في لحظات الفرح أو الحزن، وما يصدر عنهن من ممارسات وسلوكات تنضبط في جزء كبير منها لأعراف وتقاليد هذه القبيلة المحافظة والمتشبعة بالقرآن والمتمسكة بحفظه وتوارثه حتى وإن كانت لا تفهم معناه بسبب انتمائها الأمازيغي.

ورغم أن المرأة في هذا المجتمع القبلي المصر على الحفاظ على لحمته وتماسكه والذي يعطي للرجل حضورا أكبر في بناء العلاقات الاجتماعية، تبدو مطيعة وخاضعة ومستبطنة للكثير من التصورات الجوهرية المتداولة حولها، فإن هذا التركيز على الذكورية لا يمكن فهمه كابتعاد عن المرأة وإنما هو مسعى، يرتبط بها ارتباطا عضويا.[١٠] فالكثير من الممارسات والقضايا التي تقف النساء خلفها في هذه الأسرة الكبيرة يصعب التخلي عنها أو استبعادها مهما كانت النوايا بصددها. وفي هذا ما يبرز إصرار عمتي الولد طامو وخدّيج على أن يتم تحليق شعر الولد على يد حفيد أحد المرابطين المعتقد فيهم الصلاح، رغم حرص الوالد على خرق عوائد العلاقة المرعية في التنشئة بتغليب الدلال إزاء ولده وجعله على مدى الأيام لصيقا بجسده. من هنا تتجلى أهمية المعتقدات والتقاليد في حياة أفراد هذا المجتمع، فالحلق بما يرتبط به من طقوس وممارسات محكومة بسياق زمني محدد لا يشكل فقط حرزا للصبيان، وإنما هو كذلك مقدمة أساسية يستلزمها الدخول إلى حياة البالغين وما يرتبط بها من نشاطات مختلفة تتطلب الروح الاجتماعية والقدرة الجسدية والتحمل والسيطرة على النفس. يقول الراوي: "فأمل كل والد في هذه البيئة أن يصير ولده الذكر رجلا، والرجولة لا تقاس بالسن، وإنما تقاس بالفائدة، أي بدرجة القدرة على النفع في الخدمة، وعلى السرعة فيها وعلى إتقانها، لذلك يوزن كل ولد بهذا المعيار منذ طفولته، فترى أهله يعيرون بأي نقص في هذه الخدمة التي هي مال الأهل، وترى الغير من الأهل يمدحون الولد لأهله من هذا المنظور".(الكتاب، ص٤٢)

ب-الانتساب الروحي

يقترن الحكي عن الطفولة في السيرة الذاتية لأحمد التوفيق في قرية **إمرغن** بالحديث عن الانتساب الروحي لعائلة آيت واحمان ودور الزاوية التيجانية وما يتصل بها من صلاح وكرامات وبركة في مجتمع القبيلة بشكل عام، وفي التنشئة الاجتماعية والدينية التي تشربها الولد في كنف الأسرة، خاصة أن كتب الشيخ التجاني وتابعه الشيخ النظيفي من الكتب التي فتح عليها عينيه ولمسها بيده حتى قبل تعلمه القراءة. وفي هذا السياق يزخر الكتاب بإشارات تاريخية ووصفا دقيقا لعلاقة العائلة بشيوخ الزوايا خاصة الزاوية التيجانية، وحرصها الشديد على صون هذه العلاقة والتشبع بتعاليم الزاوية وأورادها والتبرك من شيوخها. ولأن التصوف يمثل غاية كبرى ومحورية بالنسبة للعائلة وكذلك القبيلة نجد الراوي يضطلع بالإخبار عن تجذر هذه الممارسة الدينية والروحية عبر التاريخ في وجدان المريغيين الذين كانوا ناصريين قبل أن يتحولوا إلى الزاوية التيجانية على يد الأسرة النظيفية، وانطبق هذا في البداية على عائلة آيت واحمان وكان ذلك في عهد السلطان مولاي الحسن.

ولفهم الأهمية الكبيرة التي لعبتها الزاوية التيجانية في المجال الاجتماعي لهذه القبيلة وللمنطقة بشكل عام سواء فيما يتعلق بإيوائها لطلبة العلم وإطعامها للمساكين أو في تعزيز أواصر الإخاء بين القبائل

خاصة أثناء زيارتها في المواسم، لا بد من استحضار الأهمية التي يكتسيها الاجتماع السنوي الذي كان يقيمه التيجانيون والمعروف بالمولودية، وكذلك حرص الوالد والمريغيين بشكل عام على زيارة مقر الزاوية كلما حلوا بمراكش، بل هي الموعد والمرجع بالنسبة لهم كما يقول الراوي.(الكتاب، ص٧٨) وهذا القرب الذي تمثله الزاوية التيجانية من هموم وتطلعات عائلة آيت واحمان والمريغيين بشكل عام يرتبط بما يعتقدونه في شيوخها وأوليائها من كرامات وقدرات على جلب التفوق والنجاح والراحة النفسية والمباركة في الرزق وتحقيق الأماني. ومن الذكريات التي يحتفظ بها الولد والتي تفسر الولاء الروحي للزاوية أن والده أخذ بيده ذات يوم إلى مراكش وأدخله بعد صلاة المغرب إلى غرفة في الزاوية التيجانية يجلس فيها الشيخ أحماد ولد الشيخ النظيفي وخليفته بعد وفاته، فقدم له هدية أراد الوالد أن يكون الولد هو الذي يضعها في يد الشيخ حتى يدعو له بالصلاح والتوفيق.(الكتاب، ص٧٨)

وثمة إشارات عديدة تبرز الأهمية التي تحظى بها الزاوية التيجانية بالنسبة لآيت واحمان ووقوف المنتمين إليها إلى جانب المريغيين في لحظات الشدة والفرح. ومن ذلك مثلا ما تعرض له أيت واحمان من مضايقات من قبل القائد والحاكم النصراني عندما تم اكتشاف عدد من البنادق بني عليها جدار تم هدمه، حيث تجند كل الأصدقاء ومنهم المنتمين إلى الطريقة التيجانية من تخفيف عبء هذه الواقعة على الأسرة. ومن جهة أخرى تكشف هذه الواقعة غياب النزعات الفردية في هذا المجتمع القبلي الذي تربى فيه الولد. فالتضامن والتماسك والتآزر يمثل أحد أسلحة المقاومة التي تشهرها الأسر ضد ما يتهددها من صعوبات ومخاطر داخلية أو خارجية.

جـــ- مسار التعلم

يكتسي مسار التعلم أهمية كبيرة في هذه السيرة الذاتية. ورغم أن هذا الكتاب يقتصر على لحظات معينة من هذا المسار تخص بالتحديد مرحلة الكتاب ومرحلة الدخول إلى المدرسة بما تمثله من تحولات أساسية في حياة الولد والوالد وكذلك الأسرة وقبائل أخرى ممن كانت أقرب إلى المناخ الاستعماري الذي كان يهيمن على المغرب خلال تلك الفترة، فإن وضع هذه السيرة في سياق الممارسات الثقافية والاجتماعية اليوم، واستحضار شخصية مؤلفها كواحد ممن عمقوا أدوات البحث التاريخي بالمغرب، يمكننا من الوقوف على العديد من العناصر الأنثربولوجية التي تتعدى مجال الفهم المتعلق بطفولة الولد إلى الإمساك بالدلالة التي كان يمثلها التعليم التقليدي آنذاك بالنسبة للقبيلة، خاصة الجانب المتعلق بحفظ القرآن وقراءته مع الجماعة أو أثناء إمامة الصلاة بهم خلال شهر رمضان. فتغلغل الخط المعرفي في الكيان المنحوت يتخذ صورة التربية الأصيلة التي يتقصد منها إلى تهذيب الشخصية الفردية وتوسيع خبرتها بالحياة وتنمية قدراتها على الاندماج في مجتمع القبيلة.

ويبين التوفيق في هذه السيرة كم كان شاقا على والده أن يدخل ولده أحمد الكتاب، لأن حمله على ذلك الفراق لا يناظره في العسر والقساوة سوى الفطام الأول عن ثدي أمه. ولأهمية هذا الحدث بالنسبة للوالد والأسرة أقام الوالد وليمة في داره للطالب(إمام المسجد ومعلم الصبيان) وطلبته من الصغار والكبار. وهو ما يجعل من هذا الأفق التعلمي الذي ينفتح عليه الولد، فرصة لانبجاس زمنية جديدة بالنسبة للوالد هي بمثابة عنوان لتطلعات وانتظارات الأسرة بكاملها. لذلك ليس غريبا أن تظهر هنا ذاتية الوالد أكثر من الولد. ويورد الراوي تفاصيل مهمة عما يجري في هذه الوليمة خاصة ما يتعلق بإخراج سلكة وإنشاد قصيدتي البردة والهمزية ثم دعاء الختم الذي يتكفل به الطالب. ويبرز التركيز على الذات وهي محور البرنامج السردي من خلال إبراز الكفاية التعلمية لأحمد التي كانت محل إشادة من قبل معلمه، إذ تمكن في أقل من المدة من تعلم حروف الهجاء وكتابة الكلمات الأربع التي في بداية سورة الفاتحة. وهنا بدأ حرص الوالد منصبا على أمر بذاته وهو أن يداوم الولد على الذهاب إلى الكتاب حتى يحفظ القرآن ويصير طالبا أو أكبر من ذلك. والإخبار عن الذات هاهنا لا يستجيب فقط لمجرد التأريخ لا غير، بل يعطي للهوية أبعادها وتجلياتها كموضوع جوهري في السرد. وجدير بالذكر أن المنحى الذي سلكه الراوي في استعادة الوقائع والذكريات المتعلقة بهذه المرحلة التعلمية في مسار الولد، سواء ما له علاقة بالقدرات التي أظهرها في الاستيعاب والحفظ والتعلم أو الاستعدادات الإيجابية التي كانت تتشكل لديه حول الكتاب وأهمية حفظ القرآن أو فيما يتعلق بذكر بعض الأسماء من الطلاب الذين كانوا مبرزين في تلقين الأولاد سواء من داخل القبيلة أو خارجها المبادئ الأساسية في حفظ القرآن الكريم وقراءته، وبينهم يبرز جليا اسم السي عابد، هذا المنحى لا يختلف كثيرا عن النهج الذي سلكه السارد في استعادة الوقائع والذكريات والمشاعر المتعلقة بولوج الولد إلى المدرسة(السكويلة). صحيح أننا هنا بإزاء لحمة مضمونية مغايرة، ومشاعر غير مألوفة سواء بالنسبة للوالد أو بالنسبة للولد أو بالنسبة للقبيلة كلها التي لم تكن تستبطن أية فكرة عن المدرسة سوى أنها أحد أدوات النصارى لإفساد الناس وإبعادهم عن الصلاح، وهذا هو الوعي الذي كان حاصلا عند فقيه القرية. ولذلك ليس غريبا أن يتكرس اهتمام الراوي لاستعادة تفاصيل مهمة ذات صلة بهذه المرحلة، وما كانت تمثله من اختراق للقيم التي تعارف عليها هذا المجتمع القبلي الزراعي. فتلك التفاصيل وما تحويه من مشاعر وردود أفعال تضيء أهمية هذا الطور الذي مرت منه شخصية التوفيق، وتنير شخصيته السيرذاتية كما تكشف عن كنه هويتها سواء فيما يتعلق بالاجتهاد والمثابرة وتنامي الإحساس بالمنافسة داخل الفصل، أو فيما يتعلق بالقيم التي تشبع بها وبدأت تحدد سلوكاته مع أقرانه خاصة قيمة التواضع، وأثرها على سعيه للاندماج في هذا المجتمع.

٤ – المحكي الذاتي

إذا كانت الرواية ككتابة تخييلية تعددية وتجربة مخصوصة في القول والتمثيل قد أتاحت لأحمد التوفيق أن يستعيد الذاكرة التاريخية، ويستولد منها مسارات سردية وتخييلية متعددةً تحيل على الواقعي في أبعاده المختلفة، لكأن الحفر في التاريخ والتقصي في نماذجه البطولية والجمالية ينطوي على مقاومة واحتجاج ضد القفز عليه أو تجاهل إسهامه في إبراز التجربة الإنسانية وتمفصلها في فعل الحكي، فإن الكتابة عن الذات في نصه: "**والد وما ولد**" تفتح أفقا آخر لمساءلة الذات في مستوييها الخاص والعام، الفردي والجماعي، عبر الاتكاء على زمن مرجعي قائم في العالم بشكل مستقل عن النص المروي فيه. ومعلوم أن الزمن المحكي هو دائما في الكتابة الاستعادية "زمن سابق في الوجود على الخطاب الذي يتشكل فيه، فليس زمن الملفوظ بالمشتق من الخطاب كما هو الحال في الملفوظ التخييلي، ولا هو بالموقوف عليه، لأنه زمن حقيقي متصل بأحداث واقعية، مجالها الأصلي هو العالم. لذلك فكل حكاية سيرذاتية هي حكاية منفتحة في واقع الأمر على زمن تاريخي، يشملها ويحتويها احتواء في تضاعيفه".[١١] لذلك يتعين الرهان فيها على التجارب والمغامرات والذكريات المتعلقة بالذات الكاتبة استراتيجية حكائية قوامها إضفاء المزيد من الصدق على المشروع السيرذاتي، بحيث يشكل التوغل في القراءة أفقا إضافيا لتعزيز التمفصل بين الهوية الممثلة كلاميا ومجمل الأحداث والوقائع التي تحيل على شخصية المترجم لذاته الحقيقية.

أ– الحقيقة التذكرية

إن كون السيرة الذاتية خطابا شديد الإحالة على زمن تاريخي، هو الذي يفسر المكانة التي تحظى بها الذاكرة فيها باعتبارها كتابة استعادية، فهي "خزان الماضي، الذي تنتقل منه الأحداث إلى الخطاب لتثبت فيه نهائيا بواسطة اللغة".[١٢] وتكمن أهمية الذاكرة في هذا النص في تأسيسها الخطاب على التصور العربي الإسلامي للذات الإنسانية من حيث هي امتداد للأسرة وجزء لا يتجزأ منها. لذلك فالوقائع والأحداث التي يضطلع الراوي باستعادتها من بطون الزمن الماضي تمكننا من فهم المقصدية التي يصدر عنها الكاتب في تتبع شجرة أنسابه. لكأن البحث عن الذات والتأسيس لهويتها سرديا لا يمكن أن يتم بمعزل عن الحفر في الذوات الأخرى التي كانت سببا في وجوده. وإذا كان هذا يدل بوضوح على أن كاتب السيرة الذاتية أكثر انتصارا للزمن المرجعي الذي مضى وانقضى منه لزمن الخطاب، فإن ما يميز فعل التذكر من انتقائية يجعل الاجتهاد الذي يضطلع به المترجم لذاته في استعادة مراحل معينة من حياته وتمثل المحطات الرامزة إلى تكون شخصيته وتطورها عبر مراحل العمر المختلفة مشدودا إلى التخييل، وما يتيحه من إمكانات التركيب والمؤالفة تحقيقا للوجود المنسجم. ذلك أن "السيرة الذاتية، سواء كانت جزئية أم كاملة، هي أكثر الأشكال الحكائية معاناة لتجربة التجاذب بين الحقيقي والمتخيل".[١٣] وإذا ما

اعتبرنا أن الغاية من التذكر في السيرة الذاتية ليست كامنة في إحداث التطابق بين الوقائع والأحداث وصور استرجاعها الكلامية، لأن فعل التذكر يتسم بالانتقائية وإمكان التعرض للتحريف والتزييف، أمكننا القول باستحالة أن تتحرر السيرة الذاتية من التخييل، لأنه يحميها من التشتت. وكما أشارت جليلة الطريطر "فالمتخيل هو الذي يؤسس لحقيقة التذكر الأنطولوجية العميقة التي تستوعب في تضاعيفها التاريخ الفردي للشخصية وتبنيه خلافا لما هو شائع متداول، فلاشيء يضمن حقيقة التذكر غير الشهادة الذاتية، التي تقدر وحدها على التشريع لهذه الحقيقة بالاعتماد على مخلفات التذكر النفسية التي ليست تطابقا حرفيا مع الوقائع الخارجية كما شهدها الفرد".[١٤] وإذا كنا نجد في الكتاب حضورا كبيرا للأفعال الدالة على التذكر، من قبيل (يتذكر الولد، يذكر أن..) خاصة ما يرتبط بالأحداث والوقائع التي يتذكرها باعتبارها تؤسس لهويته، فإننا نجد كذلك، خاصة في بداية النص، أفعالا تحيل على الإمكان والاحتمال، ومسندة للمجهول من قبيل (يحكى أن، يحكون أن)، أو على شكل أفعال ظنية(يحسب أن، يبدو أن).

ب- محكي الطفولة

لقد أعطى الكاتب لمحكي الطفولة مساحة أكبر في هذا الكتاب، وهذا ما ينسجم مع منطوق العنوان، أي طفولة في سفح الجبل. لذلك يبرز التركيز على استعادة الذكريات الخاصة بالولد والسياقات المتعلقة بها، وكذلك الإغراء الذي كان يتعرض له من مجتمع الأقران وما يطبعه من شيطنة، وردود فعل الوالد التي يطبعها التردد والخوف من ترك الولد منجذبا إلى هذا العالم. كما أن الراوي في هذه السيرة يحيل على وقائع وأحداث تعرض لها الولد في صغره كالحريق الذي أصاب رجله عندما وقع على وجه قدمه قدر من السائل الساخن، وكذلك العقرب التي لسعته وكاد يتعرض للموت، حينما كان يصغي للحكايات التي كانت تقصها رقوش. كما يذكر ردود أفعال الناس إزاء هذه الوقائع التي تعرض لها الولد حيث كانوا يتحدثون عن احتمال أن يكون عطوبا لكثرة الأعطاب التي يتعرض لها.(الكتاب، ص٩٤)

لكن الأهم في السيرة الذاتية هو أن الراوي لا يستعيد ذكريات طفولة الولد إلا ممتزجة بذكريات الأسرة والقبيلة، ولا يعني هذا أن هذه المرحلة المستعادة لم يكن فيها الولد بتلك الاستقلالية التي تبرز هوية مميزة تخصه وحسب، وإنما كذلك الإلماع إلى أهمية البنية الرمزية للذاكرة الجماعية وملحاحية تجذر الولد فيها. وهذا ما يبرزه المؤلف في الافتتاحية حينما يشير إلى دواعي تغيير العنوان في صيغته التي كانت مركوزة في الذهن، مؤكدا على أن ما تدخل بشكل قوي وتأثير حاسم في تشكيل شخصية الولد الذي كانه ثم الرجل الذي صاره ليست هي البيئة الطبيعية، وإنما هي رعاية ولده ومعاملته له. (الكتاب، ص٥) وهذا ما يفصح بقوة عن ذلك الحضور الذي يأخذه الوالد في طفولة أحمد التوفيق، حيث يقوم الراوي على امتداد النص بتحيين أبقى وأجمل ما في شخصية الوالد. لذلك فهذا الترهين أو التحيين هو موجه وبمقصدية ما إلى اعتبار الوالد الأثر الأبقى المحفور في الذاكرة والمخترق لحدود الزمان والمكان. لكأن أحمد التوفيق

بهذا التماهي معني بإبراز المغامرة السيرذاتية خاصة في صعوبة الإمساك بالهوية سواء تعلق الأمر بهوية الذات أم بهوية الآخر/ الآخرين، قريبا/ قريبين أو بعيدا/ بعيدين، الذي تفاعلت معه شخصية الولد، نظرا لما يطبع المتدخلين في التنشئة من تمازج وتداخل واعتماد على خلفيات متعددة.

وتكشف بنية الأحداث المتعلقة بالطفولة عن التدرج في تجسيد مراحل الوعي بالذات لدى الولد. فبالإضافة إلى الوصف الموضوعي الذي يتبأر حول العلاقة بالأسرة والأقران، يتخذ السرد الاستعادي متخذا استبطانيا لتجسيد فترات التحول في الإحساس والنظرة إلى العالم. لكأن أحمد التوفيق باعتماده استراتيجية السرد بضمير الغائب وفر لنفسه المساحة اللازمة للدخول إلى عالم الطفولة واقتناص الدلالات الضمنية لبداية احتكاكه بالعالم كموضوع إغراء واشتهاء ونزوع نحو التملك. ويبرز هذا بقوة من خلال الأسئلة العميقة التي بدأ الولد يواجهها بتأثير من رقوش المرأة الحاكية التي أدخلته افتراضيا إلى العوالم العجائبية وحكايات النساء والملوك ودسائس الحياة. وفي هذا السياق تكمن الإشارة إلى مشاعر الولد الغامضة تجاه أول فتاة من القرية لكنها تزوجت من شاب آخر. وهي المشاعر التي تعبر عن بداية انتقال الولد إلى طور آخر في التعاطي مع العالم من حوله واتخاذ منظوره بعدا يحيل على حسيته وعينيته ورغبته الملتبسة واللاهبة في فهم ما يضطرب غامضا في أعماقه.

وفي هذا الجانب تظهر قدرة أحمد التوفيق على إعادة خلق ماضيه من خلال لغة تتجه إلى وصف الموضوعات والمواقف التي نشأت فيها هذه العاطفة عند الطفل الذي كانه. فالعواطف المعقدة يصعب تعريفها دون التوجه نحو وصف موضوعاتها، وهو ما تنهض به الكثير من المحكيات المضمنة في هذه السيرة كجزء لا يتجزأ من تجربة الذات في الماضي. وإذا علمنا أن إدراك الإنسان نفسه كائنا بشريا فردا قابلا لاستشعار مثل هذه العواطف البشرية، وأن يوجد كائن بشري آخر يدرك هذه الحقيقة ويستطيع أن يفهم الكلمات حين يقرأها، لا بد أن يقع في صلب المشروع السيرذاتي[١٥]، أمكننا القول أن السيرة الذاتية ككتابة هي أوسع من أن يتم حصرها في مهمة استكشافية، فلا شك في أن كاتبها يتطلع إلى ما هو أعمق من ذلك بكثير، وهو ما حدده فيليب لوجون في الطبيعة العلائقية لخطاب السيرة الذاتية، أي أن الكاتب يتوجه بقصدية معينة إلى القارئ، يطلب منه موقفا معينا كما يقترح عليه أشياء كثيرة[١٦].

ج- دوافع الكتابة

وإذا تركنا هذه العناصر المضيئة للموقع الذي تحظى به الطفولة في هذه السيرة الذاتية، للتساؤل عما يجلي دوافعها والأسباب الكامنة وراء إثارة الذكريات المتعلقة بها، فإننا لا نجد في هذا الكتاب إفصاحا مباشرا عن هذه الخلفيات المحركة للسرد، ولكننا عند التأويل والتركيب، خاصة لما أشار إليه الراوي في نهاية الكتاب حول مآل الذكريات، نستطيع أن نتلمس بعض الإجابات القريبة من تلك الأسئلة، خاصة ما يمكن اعتباره إحساسا وجوديا لا يبعث على الارتياح حول مآل فضاء الذكريات من تحولات عصفت بكل

ذلك الألق الذي ميز هذه الطفولة وميز المجتمع الزراعي والقبلي الذي نشأ فيه الولد. لكأن الكتابة الاستعادية بالنسبة للمؤلف في مواجهتها لزمن الطفولة والخوض في تجربة الإمساك بأحداثه وذكرياته، تخلق فرصة للتنفيس عن النفس من أعباء هذا الإحساس، وما ينجم عنه من حمل ثقيل على حاضر الشخصية التي يتركز حولها السرد. لكأننا هنا أمام نزعة التزام يصدر عنها كاتب السيرة إزاء الذات والمجتمع، حيث يتماهي التصور الشخصي للماضي بتاريخ المنطقة التي عاش فيها. وبما أن القيم والتقاليد والعادات الاجتماعية التي تجد طريقها نحو السرد عبر الخطاب تدل بوضوح على عتاقتها وأصالتها وتجذرها في التاريخ، فلا غرابة أن يتحول البحث عن الذات إلى بحث في التاريخ المغربي وأحواله.

ما يدعم هذا التأويل ويمنحه قوة استدلالية هو ذلك المناخ الذي تكونت فيه شخصية الولد والمفعم بالرموز والأنساق والقيم التي يجري تحيينها عبر شخصية الراوي الذي ينوب عن المؤلف في القيام بهذه المهمة الاسترجاعية. ولفهم أبعادها ودلالاتها في هذا النص لا بد من استحضار الدلالة التوسطية التي أعطاها بول ريكور للسرد، خاصة بين الذات والعالم من خلال رمزية لغته. فالتفاصيل التي يوردها الراوي سواء ما تعلق منها بمجتمع النساء والعادات المتعلقة بالزواج والطقوس المصاحبة له كممارسة اجتماعية، والرهانات الكبيرة التي تعقدها الأسرة على البنت المتزوجة، والقيمة التي تكتسيها العذرية، أو حفلات الأعياد وما يحدث فيها من طقوس، أو ما يتعلق بموسم جني الزيتون أو الحفلات التي تقام بمناسبة الانتقال إلى بيت جديد، كلها عناصر تضفي المعنى على الحياة في هذا المجتمع. ولذلك فهي تؤدي دورا بانيا من الناحية الاجتماعية، وإدماجيا في إطار الهوية الجمعية. فالهوية فردية كانت أم جماعية تقترن اقترانا وثيقا بهذه الرموز الاجتماعية التي تتدخل بقوة في تسريد تلك الهوية. لذلك فهي هنا بمثابة علامات في الخطاب، بحاجة إلى تفكيك وتأويل، خاصة وأن السيرة الذاتية عندما تغوص فيها لا تكون محكومة فقط باستنطاق ما عاشته شخصية المترجم لذاته وإنما تكون مهجوسة باستكشاف مجال الإمكانات الإنسانية، وهو ما يموضعها ككتابة في صلب المستقبل.

على سبيل التركيب

إن تقليب ما يقترحه علينا أحمد التوفيق في هذا الكتاب من أحداث ووقائع وذكريات تتعلق بطفولته(النشأة والتعلم) بقرية إمرغن بالأطلس الكبير، وإعادة تركيب الاستراتيجات المعتمدة في تمثيل الذات، سردا ولغة واستذكارا وبناء مشهديا، يفضي بنا إلى الخلاصة التالية:

إن السيرة الذاتية هي اليوم، عند كثير من الكتاب، مجال لتجريب العديد من الصيغ والأساليب بما يجعل من الصعوبة بمكان تأطير ذلك المنجز ضمن خانة البحث عن الحقيقة أو التخييل الذاتي أو حتى التخييل بالمعنى الواسع. وقد أشار فيليب لوجون في حوار بالغ الأهمية أن السيرة الذاتية منذورة اليوم لابتداع الصيغ والطرائق والتقنيات الجديدة إن أرادت التحكم في موضوعها، أي الإمساك بجوهر التجربة

الإنسانية الماثل أساسا في الزمانية[١٧]، حيث تلتقي السيرة بالتاريخ، وتفارقه في الاهتمام بما هو فردي وخاص.

وعلى هذا الأساس، نتصور أن كتاب "**والد وما ولد**" لا يكتسب قيمته الفنية ضمن جنس السيرة الذاتية مما يميزه من نزوع إلى التقريرية كدليل على نمط اشتغال الذات الكاتبة على اللغة، وبما يعكس اهتماما بالميثاق السيرذاتي، وإنما كذلك بانفتاحه على ذوات عديدة وتجارب مختلفة تمثل إضاءة واضحة لمسار الطفولة في تكونه بين الأسرة والمجتمع. لذلك فالقدرة التكلمية لهذا النص وديناميته الداخلية تجعلان من الصعب الإمساك بما يقترحه علينا من دلالات ومعان وأبعاد، ما لم تستند القراءة إلى فرضيات جديدة تواكب ما يقترحه علينا نص السيرة الذاتية ككتابة من مفاهيم مغايرة تطرح من جديد سؤال الفن ومشروعية بناء المعرفة به على أساس تحقق شرط الخيال. وقد استطاع التوفيق من خلال استعادة الظروف التي عاش فيها الولد انطلاقا من نظرة خاصة للطفولة منحتها صورة مختلفة عن صورتها التعاقبية ومن خلال استثمار المقومات السردية للخطاب، أن يعكس لدى المتلقي، كشأن كل كتابة سيرذاتية طليعية، مسار الطفولة نحو النجاح والصلاح، بالتغلغل في الهوية المغربية في تعددية وتنوع مكوناتها الأمازيغية والعربية الإسلامية واليهودية، وقد مكن هذا كله كتابه من إبداع زمنية أصيلة يصعب اعتبارها مجرد سرد لوقائع وأحداث من حياة.

الهوامش:

[١]– أحمد التوفيق: **والد وما ولد**، طفولة في سفح الظل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء٢٠٠٩.

[٢]– Philippe Le jeune, Le pacte autobiographique, collection poétique, Editions du seuil, Paris١٩٧٥, page.١٤.

[٣]– جليلة الطريطر: **مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص٤٥١.

[٤]–معجب الزهراني: القراءة الحوارية لعلاقات السيرة الذاتية بالرواية، ضمن كتاب: الرواية العربية ممكنات السرد، الجزء الثاني، الكويت٢٠٠٩، ص٩٥.

[٥]– أدونيس: **الصوفية والسوريالية**، دار الساقي، بيروت١٩٩٢، ص٢٤٨.

[٦]–يمكن الإشارة في هذا السياق إلى المغايرات المتعددة التي تتحقق داخل دائرة الكتابة عن الذات بالمعنى الواسع، ومن أكثرها خرقا للمواثيق السيرذاتية واقترابا من الملفوظ التخييلي، ما بات يصطلح عليه اليوم بالتخييل الذاتي. ورغم أن هذا المفهوم يعود إلى سبعينيات القرن الماضي حينما أثبته دوبروفسكي على ظهر مؤلفه: (الابن) فإنه اليوم يحظى باهتمام واسع بين الكتاب لجهة ما يتيحه من إمكانات التعبير عن الاستيهامات والمشاعر وإضفاء التخييل على التجربة الذاتية. ومن أبرز الباحثين في هذا المجال يمكن التفكير في: جون ستاروبنسكي(Jean Starobinski) فانسون كولونا(Vincent Colonna) وجاك لوكارم(Jacques Lecarme) جان فيليب ميرو(Jean–philippe Miraux) ومحمد الداهي.

[٧]– جليلة الطريطر: **مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**، ص٢١٦.

[٨]– نجد هذا الاختبار في قراءة الناقد رشيد بنحدو لكتاب "مثل صيف لن يتكرر" لمحمد برادة، إذ يبررها بكون السيرة الذاتية من أكثر الأشكال الحكائية معاناة لتجربة التجاذب بين الواقعي والمتخيل، وإذا كانت تغري بقراءتها قراءة إحالية فإن هذه لا تسلم من إثارة السؤال المتصل بمدى صحة مقول الذات الكاتبة، وهذا ما قاده إلى قراءة قرائن مشابهة الحقيقة في نص"مثل صيف لن يتكرر" استنادا إلى ما ادعاه معرفة شخصية بالمؤلف. راجع، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، محور: **أسئلة الرواية المغربية دراسات وشهادات**، العدد ٧٩–٨٠، ص٧٨.

[٩]– يذهب فرانسوا دوس إلى أن السيرة جنس أدبي هجين يملأ بياضات الوثائق بالتقنيات السردية بما يعني أن التموضع في صلب الواقع من خلال الحقيقة التذكرية لا يعدو أن يكون مجرد فعل إيهام. راجع: François Dosse, Le pari biographique, Ecrire une vie, Paris, La Découverte, ٢٠٠٥.

ولفهم التموضع الملتبس للسيرة الذاتية بين الحقيقي والخيالي، والدور التي تلعبه الكثافة الإحالية باعتبارها دينامية يتقصدها الكاتب لتحقيق نوع من التلقي المخصوص، راجع: Sébastien Hubier, Littératures intimes, Les expressions du moi, de l'autobiographie à l'autofiction, Paris, Armon Colin (collection U), ٢٠٠٣, page.٤٩.

[١٠]– **الرجولة المتخيلة** الهوية الذكرية والثقافة في الشرق الأوسط الحديث، إعداد مي غصوب وإيما سانكليرويب، الطبعة الأولى، دار الساقي، بيروت٢٠٠٢، ص١٤.

[١١]– جليلة الطريطر: **مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث**(بحث في المرجعيات)، مركز النشر الجامعي، تونس٢٠٠٤، ص٥١٤.

[١٢]– المرجع نفسه، ص٥١٥.

[١٣]– رشيد بنحدو: "مثل صيف لن يتكرر" لمحمد برادة بين من أنا؟ ومن غيرُ أنا؟ آفاق مجلة اتحاد كتاب المغرب، محور: **أسئلة الرواية المغربية دراسات وشهادات**، العدد ٧٩–٨٠، ٢٠١٠، ص٧٨.

[١٤]– جليلة الطريطر: المرجع السابق، ص٢٣٥.

[١٥]– ميري وارنوك: **الذاكرة في الفلسفة والأدب**، ترجمة فلاح رحيم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت٢٠٠٧، ١٧٣.

[١٦]– Une pratique d'avant–garde, propos recueillis par Michel Delon, Entretien avec Philippe le jeune, Magazine littéraire, les écritures du Moi, Mars–Avril٢٠٠٧, n°١١, page.١١.

[١٧]–OP, Cit, page.١١.